المهلب بن أبي صفرة

أعـــلام القـــادة

القائد المهلب بن أبي صفرة

المهلب بن أبى صفرة ظالم بن سراق الازدي العتكى، أبو سعيد: أمير، بطاش، جواد، قال فيه عبد الله بن الزبير: هذا سيد أهل العراق. ولد في دبا، ونشأ بالبصرة، وقدم المدينة مع أبيه في أيام عمر. وولي إمارة البصرة لمصعب بن الزبير. وفقئت عينه بسمرقند. وانتدب لقتال الازارقة، وكانوا قد غلبوا على البلاد، وشرط له أن كل بلد يجليهم عنه يكون له التصرف في خراجه تلك السنة، فأقام يحاربهم تسعة عشر عاما لقي فيها منهم الاهوال. وأخيرا تم له الظفر بهم فقتل كثيرين وشرد بقيتهم في البلاد. ثم ولاه عبد الملك بن مروان ولاية خراسان، فقدمها سنة ٧٩ هـ ومات فيها. كان شعاره في الحرب: (حم لا ينصرون) وهو أول من اتخذ الركب من الحديد - وكانت قبل ذلك تعمل من الخشب - وأخباره كثيرة [١].

وكان المهلب من التابعين، فقد ولد عام الفتح الذي كان سنة ثمان الهجرية ومات سنة ٨٢ هـ في ولاية خراسان وكان يقال: ساد الأحنف بحلمه ومالك بن مسمع بمحبته للعشيرة، وقتيبة بدهائه وساد المهلب بهذه الخلال جميعاً.

حدث المهلب عن: عبد الله بن عمرو بن العاص، وسمرة بن جندب، وابن عمر، والبراء بن عازب.

روى عنه: سماك بن حرب، وأبو إسحاق، وعمر بن سيف.

وقال غير واحد: إن الحجاج بالغ في احترام المهلب لما دوخ الأزارقة، ولقد قتل منهم في ملحمة أربعة آلاف وثمان مائة.

(١) خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي، الأعلام، ٣١٥/٧.

وقد أثني عليه الكثير من العلماء والفقهاء فقد روى: الحسن بن عمارة، عن أبي إسحاق، قال:

ما رأيت أميرا قط أفضل ولا أسخى ولا أشجع من المهلب، ولا أبعد مما يكره، ولا أقرب مما يحب.

قال محمد بن سلام الجمحي: كان بالبصرة أربعة ليس مثلهم:

الأحنف: في حلمه، وعفافه، ومنزلته من علي، والحسن: في زهده، وفصاحته، وسخائه، ومحله من القلوب، والمهلب بن أبي صفرة:... فذكر أمره، وسوار القاضي: في عفافه، وتحريه للحق.

وكان سيداً جليلاً نبيلاً خطيباً شجاعاً فقيها وكان على جانب عظيم من السخاء والكرم ومما يدل على كرمه أنه أقبل يوماً في بعض غزواته فتلقته امرأة فقالت له: أيها الأمير إني نذرت إن أقبلت سالماً أن أصوم شهراً وتهب لي جارية وألف درهم، فضحك المهّلب وقال: قد وفينا نذرك فلا تعودي لمثله، فليس كل أحد يفي لك به.

ووقف رجل فقال: أريد منك حُويجة. فقال المهلب: اطلب لها رُجيْلا يعني أن مثلي لا يسأل إلا عن حاجة عظيمة، وكان حليماً من أخبار حلمه، أنه مرّ يوماً بالبصرة، فسمع رجلاً يقول: هذا أعور قد ساد الناس، ولو خرج إلى السوق لا يساوي أكثر من مائة درهم فبعث إليه المهلب بمائة درهم وقال: لوزدتنا في الثمن زدناك في العطية، وكان قد فقئت عينه بسمرقند، وكان بليغاً في كلامه حكيماً في آرائه، له كلمات لطيفة وإشارات مليحة تدل على مكارمه ورغبته في حسن السمعة والثناء الجميل ومن ذلك قوله:

الحياة خير من الموت، والثناء خير من الحياة، ولو أعطيت ما لم يعطه أحد لأ حببت أن تكون لي أذن أسمع بها ما يقال فيّ غداً إذا

مت.

وقيل يوماً للمهلّب: ما خير المجالس؟ فقال: ما بعد فيه مدى الطرف وكثر فيه فائدة الجليس.

وقال يوماً: أدنى أخلاق الشريف كتمان السر وأعلى أخلاقه نسيان ما أسرّ إليه[1].

وصف المهلب بأنه كان نزر الكلام وجيزه، يفضل فعله على لسانه، متلطفاً في إجاباته، كاتماً للسر، حليماً في موضع الحلم، شديداً في موضع الشدة، وإن كان الحلم أغلب عليه، فيروى أن رجلاً شتمه فلم يرد عليه: فقيل له: لم حلمت عنه؟ قال: لم أعرف مساويه وكرهت أن أبهته بما ليس فيه، واتصف المهلب بصبره وأناته في أعماله وحروبه وكان يقول: إناة في عواقبها فوت خير من عجلة في عواقبها درك، وعندما كان الحجّاج يستعجله بمناجزة الأزارقة الخوارج، أجابه بقوله: إن البلاء كل البلاء أن يكون الرأي لمن يملكه دون من يبصره، ومما اشتهر به المهلب في حروبه هو إعداده للبيات وأحكامه الأمور، أي أنه كان يباغت أعداءه بشن الهجوم عليهم ليلاً فيحرز انتصارات مؤزرة، واشتهر المهلب بكرمه وسخائه، ومن أقواله لأبنائه في هذا الباب: ما رأيت أحداً بين يدي قط إلا أحببت أن أرى ثيابي عليه، واعلموا يا بني أن ثيابكم على

(١) طبقات ابن سعد ٧ / ١٢٩، طبقات خليفة ت ١٦٢٠، تاريخ البخاري ٨ / ٢٥، المعارف ٣٩٩، تاريخ الطبري ٦ / ٣٥٤، الجرح والتعديل القسم الأول من المجلد الرابع ٣٦٩، تاريخ ابن عساكر ١٧ / ٢٢١، تهذيب الأسماء واللغات القسم الأول من الجزء الثاني ١١٧، وفيات الأعيان ٥ / ٣٥٠، تهذيب الكمال ص ١٣٨٣، تاريخ الإسلام ٣٠٧، العبر ١ / ٩٥، تذهيب التهذيب ٤ / ٧٥ آ، سرح العيون ١٩٤، الإصابة ت ٨٦٣٣، تهذيب التهذيب، ١٠ / ٣٢٩، النجوم الزاهرة ١ / ٢٠٦، خلاصة تذهيب التهذيب ٣٨٩، شذرات الذهب ١ / ٩٠، الدولة الأموية عوامل الإزدهار وتداعيات الإنهيار، ٣ /١٦٧.

غيركم أحسن منها عليكم، وكان يحرص على شراء ود الناس وله قول مأثور في ذلك: عجبت لمن يشتري المماليك بماله ولا يشتري الأحرار بمعروفه، وقيل له بما ظفرت؟ قال: بطاعة الحزم، ومعصية الهوى[1].

كانت سياسة المهلب تقوم على النفس الطويل في محاربة الخوارج وكان ينتظر تفجيرهم من الداخل، حتى يهون عليه أمرهم ويسهل القضاء عليهم، فقد كتب إلى الحجّاج: إني انتظر منهم ثلاث خصال: موت صاحبهم قطري بن الفجاءة أو فرقة وتشتيتاً أو جوعاً قاتلاً، ولم تخطيء تقديرات المهلب للخوارج إذ سرعان ما دبّ الشقاق في صفوف الأزارقة، فما كان من المهلب إلا أن انتهز الفرصة فصعّد الخلاف في صفوفهم، فعمد إلى حيلة ناجحة، فقد عرف بين الخوارج رجلاً يصنع السهام المسمومة، فأرسل المهلب أحد أصحابه، بكتاب أمره أن يلقيه بين عساكر قطري سراً كتب فيه: أما بعد، فإن نصالك وصلت وقد أنفذت إليك ألف درهم. فلما استوضح عن الصانع أنكر فقام قطري بن الفجاءة بقتله، فخالفه بذلك عبد ربه الكبير ووقع خلاف جديد. وتعميقاً للخلاف في صفوف الخوارج جنّد المهلب رجلاً نصرانياً وأمره أن يسجد لقطري بن الفجاءة فلما شاهده الخوارج أنكروا ذلك عليه وقتلوا النصراني واتهموا زعيمهم بتأليه نفسه.

وأخذ الخوارج يقتتلون فيما بينهم، بينما المهلب ينتظر النتائج النهائية، التي تسفر عنها هذه التصفيات ليتفرغ لها مما جعله لا يمتثل لأمر الحجّاج عندما طالبه بمقاتلتهم، بل كتب له: إني لست أرى أن أقاتلهم ما دام يقتل بعضهم بعضاً، فإن تمّوا على ذلك، فهو الذي تريد

(١) الدولة الأموية عوامل الإزدهار وتداعيات الإنهيار، ٢/ ٤٨٢.

وفيه هلاكهم، وإن اجتمعوا لم يجتمعوا إلا وقد رمق بعضهم بعضاً، فأناهضهم حينئذ، وهو أهون ما كانوا وأضعهم شوكة إن شاء الله تعالى، فكف عنه الحجّاج، وتركهم المهلب يقتتلون شهراً لا يحركهم، ثم سار إليهم المهلب وتهيأت له الخوارج بقيادة عبد ربه الكبير ثم تلا ذلك قتال شديد تمكن المهلب في نهايته من طردهم من جيرفت، ثم لاحقهم حتى هزمهم هزيمة منكرة، وقتل زعيمهم عبد ربه ولم ينج منهم إلا عدد قليل، ولعل نجاح المهلب يعود إلى أسلوبه الحربي، الذي يعتمد على المطاولة ويتجنب العجلة، بجانب قيادته الحكيمة وشجاعته وخبرته العسكرية ومكره في الحروب. قال الشاعر:

قد يدرك المرء بالتدبير ما عجزت ::: عنه الكماة ولم يحمل على بطل

ونتيجة انتصاراته ضد الخوارج فقد رأى فيه الخليفة عبد الملك بأنه قادر على إيجاد التوازن بين الأطراف القبلية المتنازعة فولاّه على خراسان فنزل العاصمة مرو، ثم أخذ يعيد الهدوء والأمن والنظام إلى البلاد، ولأول مرة بعد أربع عشرة سنة، تمّ إرسال جحافل المسلمين من جديد نحو الشرق إلى بلاد التركمان ٨٠ هـ، فعبر المهلب بنفسه نهر بلخ "سيحون " ونزل كش، ثم جعل يغزو البلاد غزواً متواصلاً لا يفتر عن الجهاد، فخيل له بسمرقند، وأخرى ببخاري وثالثة بطخارستان ورابعة ببست، وكان كلما فتح فتحاً أخرج الخمس لبيت المال وأرسله إلى الحجّاج ويقسم الباقي بين أصحابه.

ولما حضرته الوفاة دعا ابنه حبيباً ومن حضره من ولده، ودعا بسهام فحزمت ثم قال: أفترونكم كاسريها مجتمعة؟ قالوا: لا. فقال: أفترونكم كاسريها متفرقة؟ قالوا: نعم. قال: فهكذا الجماعة، فأوصيكم بتقوى الله، وصلة الرحم، فإن صلة الرحم تنسئ في الأجل وتثري المال وتكثر العدد، وأنهاكم عن القطيعة فإن القطيعة تعقب النار

وتورث الذلة والقلّة، فتحابوا وتواصلوا وأجمعوا أمركم لا تختلفوا، وتبارّوا تجتمع أموركم. إن بني الأم يختلفون فكيف ببني العَلات؟ وعليكم بالطاعة والجماعة وليكن فعالكم أفضل من قولكم، فإني أحبّ للرجل أن يكون لعمله فضل على لسانه، واتقوا الجواب وزلة اللّسان فإن الرجل تزلّ قدمه فينتعش من زلّته ويزلّ لسانه فيهلك. اعرفوا لمن يغشاكم حقّه، فكفى بغدو الرجل ورواحه إليكم تذكرة له، وآثروا الجود على البخل، وأحبوا العرب واصطنعوا العرف، فإن الرجل من العرب تَعده العِدة فيموت دونك، فكيف الصنيعة عنده؟ عليكم في الحرب بالإناة والمكيدة فإنها أنفع في الحرب من الشجاعة وإذا كان اللقاء نزل القضاء، فإن أخذ الرجل بالحزم فظهر على عدوه قيل: أتى الأمر من وجهه ثم ظفر فَحُمد وإن لم يظفر بعد الأناة قيل: ما فرّط ولا ضيّع، ولكن القضاء غالب، وعليكم بقراءة القرآن وتعلم السنن وأدب الصالحين وإياكم والخفة وكثرة الكلام في مجالسكم[1].

مواقف من حياته

أما تعرفني؟

عن مطرف بن عبد الله بن الشخير نظر إلى المهلب بن أبي صفرة وعليه حلة يسحبها ويمشي الخيلاء فقال: يا أبا عبد الله، ما هذه المشية التي يبغضها الله ورسوله؟ فقال المهلب: أما تعرفني؟ فقال: بل أعرفك، أولك نطفة مذرة، وآخرك جيفة قذرة، وحشوك فيما بين ذلك بول وعذرة [2].

الكلام المطبوع، لا الكلام المصنوع:

لما هزم المهلب بن أبي صفرة قطري بن الفجاءة صاحب

(١) الدولة الأموية عوامل الإزدهار وتداعيات الإنهيار، ٣ /١٦٨.
(٢) أدب الدنيا والدين، ١/٢٩١.

الأزارقة، بعث إلى مالك بن بشير، فقال له: إني موفدك إلى الحجاج فسر، فإنما هو رجل مثل؛ وبعث إليه بجائزة، فردها وقال: إنما الجائزة بعد الاستحقاق، وتوجه. فلما دخل إلى الحجاج؛ قال له، ما اسمك؟ قال: مالك بن بشير؛ قال: ملك وبشارة؛ كيف تركت المهلب؟ قال: أدرك ما أمل وأمن من خاف؛ قال: كيف هو بجنده؟ قال: والد رءوف؛ قال: فكيف جنده له؟ قال أولاد برررة؛ قال: كيف رضاهم عنه؟ قال: وسعهم بالفضل وأقنعهم بالعدل؛ قال: فكيف تصنعون إذا لقيتم عدوكم؟ قال: نلقاهم بحدنا فنطمع فيهم، ويلقوننا بحدهم فيطمعون فينا؛ قال: كذلك الحد إذا لقي الحد؛ قال: فما حال قطري؟ قال: كادنا ببعض ما كدناه؛ قال: فما منعكم من إتباعه؟ قال: رأينا المقام من ورائه خيراً من إتباعه؛ قال: فأخبرني عن ولد المهلب؛ قال: أعباء القتال بالليل، حماة السرح بالنهار؛ قال: أيهما أفضل؟ قال: ذلك إلى أبيهم؛ قال: لتقولن؛ قال: هم كحلقة مضروبة لا يعرف طرفاها؛ قال: أقسمت عليك، هل روأت في هذا الكلام؟ قال: ما أطلع الله على غيبة أحداً؛ فقال الحجاج لجلسائه: هذا والله الكلام المطبوع، لا الكلام المصنوع[1].

لم حَلُمت عنه؟

وقال المدائني: شتم رجل المهلّب بن أبي صفرة فلم يردد عليه، فقيل له: لم حَلُمت عنه؟ قال: لم أعرف مساويه، وكرهت أن أبهته بما ليس فيه. وشُتم رجل فقال الرجل لشاتمه: يا هذا، ما ستر الله عليك من عورتي أكثر، وأنشد:

لن يدرك المجدَ أقوامٌ وإن كَرُمـوا ::: حتى يُـذَلّوا وإن عـزوا لأقـوام

(١) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ١١٨/١.

أو يُشْتَموا فترى الألوانَ مشـــرقةً ::: لا صفحَ ذلّ ولكن صفحَ أحلام[1]

لم أذمم يومك:

وقدم السعدي أبو وجزة على المهلب بن أبي صفرة، فقال: أصلح الله الأمير. إني قد قطعت إليك الدهناء، وضربت إليك آباط الإبل من يثرب. قال فهل أتيتنا بوسيلة أو عشرة أو قرابة؟، قال: لا ولكني رأيتك لحاجتي أهلاً، فإن قمت بها، فأهل ذلك، وإن يحل دونها حائل، لم أذمم يومك، ولم أيأس من غدك. فقال المهلب: يعطي ما في بيت المال. فوجد مائة ألف درهم، فدفعت إليه، فأخذها وقال:

يا من على الجود صاغ الله راحته.. فليس غير البذل والجود عمت عطاياك من بالشرق قاطبةً.. فأنت والجود منحوتان من عود[2].

كيف ترى سيفي هذا؟

وروي أنَّ فتى من الأزد دفع إلى المهلّب بن أبي صفرة سيفاً له وقال: يا عمّ! كيف ترى سيفي هذا؟ فقال له المهلّب: سيفك جيد إلاَّ أنَّه قصير، فقال له الفتى: أُطوِّله يا عمّ بخَطوي، فقال له: والله يا بن أخي إنّ المشي إلى الصين أو إلى أقصى أذربيجان على أنياب الأفاعي أسهل من تلك الخطوة[3].

من دهاء المهلب :

لما طالت الحرب بين الخوارج وبين المهلب بن أبي صفرة، ورأى ثباتهم وأنهم كلما تفرقوا بالحرب عادوا وتجمعوا باتفاق أهوائهم، علم أنه لا يظفر بهم تاماً ويستأصلهم إلا باختلاف يقع

(١) المبرد، الفاضل،٢٧.
(٢) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ،ص٩٢.
(٣) الخالديان، الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين، ١٠/١.

بينهم. وكان في الخوارج حداد يعمل نصالاً مسمومة فيرمي بها أصحاب المهلب، فوجه المهلب رجلاً من أصحابه بكتاب وألف درهم إلى عسكر قطري والخوارج، فقال: ألق هذا الكتاب في العسكر واحذر على نفسك. وكان الحداد يقال له: أبزى. فمضى الرجل، وكان في الكتاب: أما بعد، فإن نصالك قد وصلت إلي، وقد وجهت إليك بألف درهم فاقبضها، وزدنا من هذه النصال. فوقع الكتاب إلى قطري فدعا بأبزى، فقال له: ما هذا الكتاب؟ قال: لا أدري، قال: فهذه الدراهم؟ قال: لا أعلم علمها، فأمر به فقتل. فجاء عبد ربه الصغير مولى بني قيس بن ثعلبة فقال له: أقتلت رجلاً على غير ثقة ولا تبين؟ قال: فما حال هذه الدراهم؟ قال: يجوز أن يكون أمرها كذباً ويجوز أن يكون حقاً. فقال له قطري: فقتل رجل في صلاح الناس غير منكر، وللإمام أن يحكم بما رآه صلاحاً، وليس للرعية أن تعترض عليه. فتنكر عبد ربه في جماعة معه ولم يفارقوه. فبلغ ذلك المهلب فدس إليه رجلاً نصرانياً، فقال له: إذا رأيت قطرياً فاسجد له، فإذا نهاك فقل: إنما سجدت لك، ففعل النصراني فقال له قطري: إنما السجود لله، فقال: ما سجدت إلا لك. فقال له رجل من الخوارج: قد عبدك من دون الله، وتلا: {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ} [الأنبياء: ٩٨]. فقال له قطري: إن هؤلاء النصارى قد عبدوا المسيح بن مريم فما ضر المسيح ذلك شيئاً. فقام رجل من الخوارج إلى النصراني فقتله، فأنكر ذلك عليه وقال: أقتلت ذمياً! فاختلفت الكلمة، فبلغ ذلك المهلب فوجه إليهم رجلاً يسألهم عن شيء تقدم به إليه. فقال: أرأيتم رجلين خرجا مهاجرين إليكما، فمات أحدهما في الطريق، وبلغكم الآخر فامتحنتموه فلم يجز المحنة، ما تقولون فيهما؟ فقال بعضهم: أما الميت فمؤمن من أهل الجنة، وأما

الذي لم يجز فكافر حتى يجيزها. فقال له قوم آخرون: بل هما كافران حتى يجيز المحنة. فكثر الاختلاف بينهم، وكان سبب تفرقهم وتمكن المسلمين منهم وانقطاع دابرهم[1].

ما أخطأت العرب:

قدم زياد الأعجم على المهلب بن أبي صفرة بخراسان ونزل على ابنه حبيب فجلسا ذات عشية على شراب وفي الدار شجرة عليها حمامة فجعلت تغرد وزياد الأعجم يقول:

تغني أنت في ذمي وعهدي ::: وذمة والدي أن لا تضاري
وبيتك أصلحيه ولا تخافي ::: على صفر مزغبة صغار
فإنك كلما غنيت صوتاً ::: ذكرت أحبتي وذكرت داري
فإن هم يقتلوك طلبت ثأري ::: بقتلهم لأنك في جواري

فأخذ حبيب سهماً فرماها فأثبتها فماتت، فقال له زياد: قتلت جاري، بيني وبينك الأمير المهلب ثم أتى المهلب فأخبره فقال: يا حبيب ادفع إلى أبي أمامة ألف دينار قال حبيب: أعز الله الأمير كنت ألعب. فقال: أمع هذا لعب؟ جار أبي أمامة جاري، فدفع إليه حبيب ألف دينار فقال زياد الأعجم:

فللـه عيناً من رأى كقضية ::: قضاها فأمضاها الأمير المهلب
قضى ألف دينار بجار أجرته ::: من الطير حضان على البيض ينعب
رماه حبيب بن المهلب رمية ::: فأنفذه بالسهم والشمس تغرب
فألزمه عقل القتيل بزجرة ::: وقال حبيب إنما كنت ألعب
فقال زياد لا يروع جاره ::: وجارة جاري مثل جاري وأقرب

فلما سمعه المهلب أجازه بجائزة حسنة وصرفه مكرماً وبلغ هذا

(١) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ٨/٣.

العشر الحجاج، فقال: ما أخطأت العرب إذ جعلت المهلب شيخها[١].

من كلامه:

- خير مناقب الملوك العفو[٢].

- وقال المهلب بن أبي صفرة لما ذهبت عينه بسمرقند:

لئن ذهبت عيني لقد بقيت نفسي :: وفيها بحمد الله عن ذاك ما ينسي
إذا جاء أمر الله أعيى خيولنا ::: ولا بد أن تعي العيون لدى الرمس[٣]

- عجبت لمن يشتري العبيد بما له ولا يشتري الأحرار بفعاله.

- وقال لبنيه: أحسن ثيابكم ما كان على غيركم. وخير دوابكم ما كان تحت سواكم.

- الإقدام على الهلكة تغرير. والإحجام عن الفرصة جبن شديد[٤].

- وقال المهلب بن أبي صفرة لبنيه: يا بني! إذا أتيتم قوماً فأتوهم وعقولكم معكم! قالوا: فكيف ذلك؟ قال: أصيبوا من الطعام شيئاً فإن البطل منكم إذا لم يفعل ذلك ثم أتى أخاه فرآه يسأل غلامه ظن أنه من أجل الطعام فيظل متعلق القلب حتى يطعم[٥].

- وقال المهلب بن أبي صفرة لبنيه: يا بني، إذ غدا عليكم الرجل

(١) القاضي التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، ٥٨/١.
(٢) يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري أبو يوسف، أدب المجالسة وحمد اللسان وفضل البيان وذم العي وتعليم الإعراب، دار الصحابة للتراث - طنطا، ١١٧/١.
(٣) أبو الصفا صلاح الدين خليل بن عز الدين أيبك بن عبد الله الأليكي الصفدي، الشعور بالعور، تحقيق: الدكتور عبد الرزاق حسين، دار عمار - عمان - الأردن - ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨هـ، ٥٠/١.
(٤) أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، الإعجاز والإيجاز، دار الغصون - بيروت / لبنان - ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، ٧٠/١.
(٥) ابن الحداد، الجوهر النفيس في سياسة الرئيس، ٢٦/١.

وراح مسلماً، فكفى بذلك تقاضيا[١].

- العيْش كلّه في الجَليس المُمْتع[٢].

- لأن أرى لعقل الرجل فضلاً على لسانه أحبُّ إليَّ من أن أرى للسانه فضلا على عقله[٣].

- وقال المهلب بن أبي صفرة لبنيه: إذا وليتم فلينوا للمحسن، واشتدوا على المريب، فإن الناس للسلطان أهيب منهم للقرآن[٤].

- أدنى أخلاق الشريف كتمانُ السرِّ وأعلى الأخلاق ما أسر إليه[٥].

- الحسد شهابٌ لا يبالي من أصاب، وعلى من وقع[٦].

- من ضاق قلبه اتسع لسانه[٧].

- ومن شعره:

– إنما المجد ما بنى والد الصد ::: ق وأحيا فعاله المولود[٨]

- ما ضاقت صدور الرجال عن شيء كما ضاقت عن السر[٩].

- وكتب المهلب بن أبي صفرة إلى عبد الملك بن مروان لما هزم الشراة: أما بعد فإنا لقينا المارقة ببلاد الأهواز وكانت للناس جولة ثم ثاب أهل الدين والمروءة ونصرنا الله جل وعز عليهم ونزل القضاء بأمر

(١) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ٧٠/١.
(٢) المصدر السابق، ٢٣٢/١.
(٣) المصدر السابق، ٢٤٧/١.
(٤) المبرد، الكامل في اللغة والأدب، ٢١٤/١.
(٥) المبرد، الكامل في اللغة والأدب، ٢٣٢/٢.
(٦) الجاحظ الرسائل، ٧٥/١.
(٧) الوشاء، الموشى، ١٥/١.
(٨) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصري، المحاسن والأضداد،ص٩.
(٩) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ،ص١٩٢.

جاوزت النعمة فيه الأمل فصاروا ردية رماحنا وضرائب سيوفنا وقتل رئيسهم في جماعة من حماتهم وذوي النيات منهم وجلا الباقون عن عسكرهم، وأرجو أن يكون آخر هذه النعمة كأولها تماماً وكمالاً، والسلام[1].

- ما السيف الصارم في يد الشجاع بأعزله من الصدق[2].

- وصية المهلب بن أبي صفرة لأبنائه عند موته :

روى الطبري قال: لما كان المهلب بن أبي صفرة بزاغول من مرو الروذ من خراسان أصابه المرض فدعا حبيبا ابنه ومن حضره من ولده ودعا بسهام فحزمت، وقال: أترونكم كاسريها مجتمعة قالوا: لا. قال: أفترونكم كاسريها متفرقة؟ قالوا: نعم. قال: فهكذا الجماعة فأوصيكم بتقوى الله وصلة الرحم، فإن صلة الرحم تنسئ في الأجل، وتثري المال وتكثر العدد، وأنهاكم عن القطيعة، فإن القطيعة تعقب النار، وتورث الذلة والقلة تباذلوا وتواصلوا تحابوا، وأجمعوا أمركم، ولا تختلفوا، وتباروا تجتمع أموركم إن بني الأم يختلفون، فكيف ببني العلات وعليكم بالطاعة والجماعة ولتكن فعالكم أفضل من قولكم، فإني أحب للرجل أن يكون لعمله فضل على لسانه، واتقوا الجواب وزلة اللسان، فإن الرجل تزل قدمه فينتعش من زلته، ويزل لسانه فيهلك اعرفوا لمن يغشاكم حقه فكفي بغدو الرجل ورواحه إليكم تذكرة له، وآثروا الجود على البخل وأحبوا العرب واصطنعوا العرب، فإن الرجل من العرب تعده العدة فيموت دونك، فكيف الصنيعة عنده وعليكم في الحرب بالأناة والمكيدة، فإنها أنفع في الحرب من الشجاعة، وإذا كان اللقاء نزل القضاء، فإن أخذ رجل

(١) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ، ص١٩٣.
(٢) الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، ١٥/٢.

بالحزم فظهر على عدوه، قيل: أتى الأمر من وجهه ثم ظفر فحمد وإن لم يظفر بعد الأناة قيل ما فرط ولا ضيع، ولكن القضاء غالب وعليكم بقراءة القرآن، وتعليم السنن وأدب الصالحين، وإياكم والخفة وكثرة الكلام في مجالسكم، وقد استخلفت عليكم يزيد وجعلت حبيبا على الجند حتى يقدم بهم على يزيد، فلا تخالفوا يزيد: فقال له المفضل: لو لم تقدمه لقدمناه.

- وعهد إلى ولده يزيد، فكان من جملة ما قال له: يا بني استعقل الحاجب واستظرف الكاتب، فإن حاجب الرجل وجهه وكاتبه لسانه وكان يقول لبنيه: يا بني أحسن ثيابكم ما كان على غيركم.

ومن كلماته المأثورة قوله: الحياة خير من الموت، والثناء الحسن خير من الحياة، ولو أعطيت ما لم يعطه لأحد لأحببت أن تكون لي أذن أسمع بها ما يقال في غدا إذا مت.

وقوله: عجبت لمن يشتري العبيد بماله ولا يشتري الأحرار بإفضاله[1].

خطب المهلب بن أبي صفرة :

- خطبته في حث جنده على قتال الأزارقة:

وكان المهلب بن أبي صفرة، وهو على قتال الأزارقة يأمر أصحابه بالتحرز، ويخوفهم البيات وإن بعد منهم العدو ويقول: احذروا أن تكادوا كما تكيدون، ولا تقولوا هزمنا وغلبنا، فإن القوم خائفون وجلون والضرورة تفتح باب الحيلة، ثم قام فيهم خطيبا فقال: يأيها الناس، إنكم قد عرفتم مذهب هؤلاء الخوارج، وأنهم إن قدروا عليكم فتنوكم في دينكم، وسفكوا دماءكم، فقاتلوهم على ما قاتل عليه

(١) جمهرة خطب العرب، ٢ /٢٨٦.

أولهم علي بن أبي طالب صلوات الله عليه، فقد لقيهم قبلكم الصابر المحتسب مسلم بن عبيس، والعجل المفرط عثمان بن عبيد الله، والمعصي المخالف حارثة بن بدر فقتلوا جميعا وقتلوا فألفوهم بجد وحد فإنما هم مهنتكم وعبيدكم وعار عليكم ونقص في أحسابكم وأديانكم أن يغلبكم هؤلاء على فيئكم ويطئوا حريمكم.

خطبة أخرى له في جنده:

وخطب أصحابه وقد مال الخوارج بأجمعهم على العسكر وانهزم الناس بسولاف فقال: والله ما بكم من قلة، وما ذهب عنكم إلا أهل الجبن والضعف والطمع والطبع، فإن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله، فسيروا إلى عدوكم على بركة الله.

نص آخر :

وروي الطبري خطبة المهلب في أصحابه يوم هزموا، فقال: ثم إن الخوارج شدت على الناس بأجمعها شدة منكرة، فأجفل الناس، وانصابوا منهزمين لا تلوي أم على ولد حتى بلغ البصرة هزيمة الناس وخافوا السباء، وأسرع المهلب حتى سبقهم إلى مكان يافع في جانب عن سنن المنهزمين، ثم إنه نادى الناس إلي إلي عباد الله فثاب إليه جماعة من قومه فاجتمع إليه منهم نحو من ثلاثة آلاف، فلما نظر إلى من قد اجتمع رضي جماعتهم، فحمد الله وأثني عليه ثم قال: أما بعد، فإن الله ربما يكل الجمع الكثير إلى أنفسهم، فيهزمون وينزل النصر على الجمع اليسير فيظهرون ولعمري ما بكم الآن من قلة إني لجماعتكم لراض وإنكم لأنتم أهل الصبر وفرسان أهل المصر، وما أحب أن أحدا ممن انهزم معكم فإنهم لو كانوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا عزمت على كل امرئ منكم لما أخذ عشرة أحجار ثم امشوا بنا نحو عسكرهم فإنهم الآن آمنون وقد خرجت خيلهم في طلب إخوانكم

فوالله إني لأرجو ألا ترجع إليهم خيلهم حتى تستبيحوا عسكرهم وتقتلوا أميرهم[1].

- وقال المهلَّب بن أبي صفرة رحمه الله لولده: إذا سمع أحدكم العوراء فليتطأطأ لها تخطَّه [2].

- لما حضرت المهلب بن أبي صفرة رحمه الله الوفاة، قال لولده وأهله: أوصيكم بتقوى الله، وصلة الرحم: فإن تقوى الله تعقب الجنة؛ وإن صلة الرحم تنسئ الأجل، وتثري المال، وتجمع الشمل، وتكثر العدد وتعمر الديار، وتعز الجانب.

وأنهاكم عن معصية الله تعالى، فإن معصية الله تعقب النار؛ وإن قطيعة الرحم تورث الذلة والقلة، وتقل العدد، وتفرق الجمع، وتذر الديار بلا قِع، وتذهب المال، وتطمع العدو، وتبدي العورة.

يا بني، قومكم قومكم: إنه ليس لكم فضل عليهم، بل هم أفضل منكم، إذ فضلوكم وسودوكم، أوطؤا أعقابكم، وبلغوا حاجتكم فيما أردتم وأعانوكم؛ فإن طلبوا فأطلبوهم، وإن سألوا فأعطوهم، وإن لم يسألوا فابتدؤوهم، وإن شتموا فاحتملوهم، وإن غشوا أبوابكم فلتفتح لهم ولا تغلق دونهم.

يا بني، إني أحب للرجل منكم أن يكون لفعله الفضل على لسانه، وأكره للرجل منكم أن يكون للسانه الفضل على فعله.

يا بني، اتقوا الجواب، وزلة اللسان: فإني وجدت الرجل تعثر قدمه فيقوم من زلته وينتعش منها سوياً، ويزل لسانه فيوبقه ويكون فيه هلكته.

---

(١) جمهرة خطب العرب،٢ /٤٤٩.

(٢) أسامة بن منقذ، لباب الآداب،ص٦.

يا بني، إذا غدا عليكم رجل وراح فكفى بذلك مسألة وتذكرة بنفسه.

يا بني، ثيابكم على غيركم أجمل منها عليكم، ودوابكم تحت غيركم أجمل منها تحتكم.

يا بني، أحبوا المعروف، وأنكروا المنكر واجتنبوه، وآثروا الجود على البخل، واصطنعوا العرب وأكرموهم، فإن العربي تعده العدة فيموت دونك، ويشكر لك، فكيف بالصنيعة إذا وصلت إليه في احتماله لها وشكره، والوفاء منه لصاحبها؟ يا بني، سودوا أكابركم، واعرفوا فضل ذوي أسنانكم؛ وارحموا صغيركم وقربوه وألطفوه، وأجبروا يتيمكم وعودوا عليه بما قدرتم؛ ثم خذوا على أيدي سفهائكم، وتعاهدوا فقراءكم وجيرانكم بما قدرتم عليه؛ واصبروا للحقوق ونوائب الدهور؛ واحذروا عار غدٍ؛ وعليكم في الحرب بالأناة والتؤدة في اللقاء، وعليكم بالتماس الخديعة في الحرب لعدوكم؛ وإياكم والنزق والعجلة، فإن المكيدة والأناة والخديعة أنفع من الشجاعة والشدة.

واعلموا أن القتال والمكيدة مع الصبر، فإذا كان اللقاء، نزل القضاء المبرم. فإن ظفر المرء وقد أخذ بالحزم قال القائل: قد أتى الأمر من وجهه؛ وإن لم يظفر قال: ما ضيَّع ولا فرَّط، ولكن القضاء غالب.

يا بني، الزموا الحزم على أي الحالين وقع الأمر؛ والزموا الطاعة والجماعة؛ وتواصلوا وتوازروا وتعاطفوا، فإن ذلك يثبت المودة، وتحابوا؛ وخذوا بما أوصيكم به بالجد والقوة، والقيام به والتعهد له، وترك الغفلة عنه، تظفروا بدنياكم ما كنتم فيها، وآخرتكم إذا صرتم إليها، ولا قوة إلا بالله.

يا بني، وليكن أول ما تبدؤون به أنفسكم إذا أصبحتم تعلم القرآن والسنن، وأداء الفرائض؛ وتأدبوا بأدب الصالحين من قبلكم من سلفكم؛ ولا تقاعدوا أهل الدعارة والريبة، ولا تخالطوهم، ولا يطمعن في ذلك منكم. وإياكم والخفة في مجالسكم وكثرة الكلام، فإنه لا يسلم منه صاحبه. وأدوا حق الله تعالى عليكم؛ فإني قد أبلغت إليكم في وصيتي، واتخذت الله حجة عليكم [1].

- قال المهلب بن أبي صُفْرة لابنه عبد الملك: يا بني إنما كانت وصية رسول الله ﷺ عائشةَ عِدَاتٌ أنفذَهَا أبو بكر الصديق ﷺ فلا تبدأ بنعم فإن مَوْرِدها سَهْل ومَصْدَرها وَعْر، واعلم أن وإن قَبُحت فربما رَوّحت وما قدرت فلا توجب الطمع وقال سَمُرة بن جُنْدب: لأن أقولَ للشيء أفعله ثم يبدو لي فأفعله أحبُّ إلي من أن أقول أفعله ثم أفعله قال المثقِّبُ:

حَسَنٌ قولُ نَعَمْ من بعد لاَ ::: وقَبيحٌ قولُ لا بعد نَعَمْ
إنّ لا بعد نَعَمْ فاحشةٌ ::: قَبلا قابدأ إذا خِفْتَ النَّدَمْ
وإذا قلت نَعَمْ فاصْبِرْ لها ::: بنَجَاح الوَعْدِ إن الْخُلْفَ ذَمّْ[2]

- لو لم يكن بالاستبداد في الرأي إلا صون السر وتوفير العقل لوجب التمسك به [3].

* * *

(١) أسامة بن منقذ، لباب الآداب، ص١٠.
(٢) أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري، مجمع الأمثال، محمد محيى الدين عبد الحميد، دار المعرفة - بيروت، ص٩٨.
(٣) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ٧٤/٦.